من آيات الله

فى السموات والأرض

قال تعالى فى سورة الجاثية: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٣-٤].

فى هذه الآيات البينات يشير القران الكريم إلى آيات الله المبثوثة فى السموات والأرض، وهذه الآيات لا تقتصر على شئ دون شئ، ولا حال دون حال، فحيثما مد الإنسان ببصره، وجد آيات الله تطالعه فى هذا الكون العجيب.

وأى شئ ليس أية، ففى كل نظرة ينظر بها المؤمن فى هذا الوجود يرى آيات دالة على قدرة الله، وعلمه وحكمته. فالكون كله فى نظر المؤمن بالله هو كتاب الله المفتوح يقرأ فى صفحاته آيات تتحدث عن جلال الله، وعظمته، وكماله.

هذه السموات بأجرامها الضخمة، وأفلاكها الهائلة، وهى على ضخامتها مبعثرة كالنثار الصغير فى الفضاء، الفضاء الهائل الرهيب الجميل.

ودورة هذه الأجرام فى أفلاكها، فى دقة، واطراد، وتناسق جميل لا تشبع العين من النظر إليه، ولا يشبع القلب من تمليه.

وهذه الأرض الواسعة العريضة بالقياس إلى البشر وهى ذرة أو هباءة بالقياس إلى النجوم الكبيرة، ثم بالقياس إلى هذا الفضاء الذى تتوه فيه، تتوه لولا القدرة التى تمسك بها، وتنتظمها فى العقد الكونى الذى لا يتوه شئ فيه.

وما أودعه الله طبيعة هذه الأرض فى موقعها الكونى الخاص، من صلاحية لنشوء الحياة فوقها، ومن خصائص دقيقة مقصودة متراكبة متجمعة متناسقة، لو اختلت خصيصة واحدة منها أو تخلفت، ما أمكن أن تقوم فيها الحياة أو تدوم.

وكل شئ فى هذه الأرض، وكل حى آية، وكل جزء من كل شئ، ومن كل حى فى هذه الأرض آية. . والصغير الدقيق كالضخم الكبير آية.

هذه الورقة الصغيرة فى هذه الشجرة الضخمة أو النبتة الهزيلة آية، آية فى شكلها وحجمها، آية فى لونها وملمسها، آية فى وظيفتها وتركيبها، وهذه الشعرة فى جسم الحيوان أو الإنسان آية، آية فى خصائصها ولونها وحجمها. وهذه الريشة فى جناح الطائر آية، آية فى مادتها وتنسيقها ووظيفتها. وحيث مد الإنسان ببصره فى الأرض أو فى السماء تزاحمت الآيات وتراكبت، وأعلنت عن نفسها لقلبه، وسمعه، وبصره.

ولكن من الذى يرى هذه الآيات ويتشعرها؟ لمن تعلن هذه الآيات عن نفسها؟ لمن؟ للمؤمنين. . لأن غير المؤمن لا يرى فيما يرى من هذا الوجود إلا أشباحاً تتحرك، وكائنات تظهر وتختفى، وقد ينبهر بما يرى ويفتن بما يملأ عينيه من جمال، ولكنه يظل حيث هو فى تعامله مع كائنات الوجود وعوالمه، دون أن يصله شئ من هذا الكون ومبدعه.

إذن الآيات للمؤمنين. فالإيمان هو الذى يفتح القلوب لتلقى الأصداء، والأضواء، والأنداء، والإحساس بما فيها من آيات الله المبثوثة فى الأرض والسماء.

والإيمان هو الذى تخالط القلوب بشاشته، فتحيا وترق وتلطف، وتلتقط ما يزخر به الكون من إيحاءات خفية، وظاهرة، تشير كلها إلى اليد الصانعة، وطابعها المميز فى كل ما تصوغه وتبدعه من أشياء ومن أحياء. وكل ما خرج من هذه اليد فهو خارق معجز، لا يقدر على إبداعه أحد من خلق الله.

وإذا كان قوله تعالى: ﴿**إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين**﴾ عرض عام للوجود كله فى السموات والأرض، فإن قوله تعالى بعد ذلك: ﴿**وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون**﴾. نظرة فى أفق محدود من آفاق الوجود. إنها نظرة ينظر بها الإنسان إلى نفسه. وكيف خلق؟ ومن أين جاء؟ ثم نظرة أخرى

يتجاوز بها حدود نفسه إلى عوالم الأحياء التى تدب على الأرض وتعيش فيها، فهى عوالم كثيرة مختلفة الأشكال والصور، بعضها يعيش على اليابسة وبعضها يعيش فى الماء، وبعضها يسبح فى الجو، وفى كل عالم منها أجناس كثيرة لاتكاد تقع تحت حصر. وأصغرها كأكبرها فى خلق الله، معجز فى تصريفه، معجز فى تناسب حيواته على هذه الأرض بحيث لايزيد جنس عن حدود معينة، تحفظ وجوده وامتداده، وتمنع طغيانه على الأجناس الآخرى طغيان إبادة وإفناء.

واليد الممسكة بزمام الأنواع والأجناس تزيد فيها وتنقص بحكمة وتقدير، وتركب فى كل منها من الخصائص والقوى والوظائف، ما يحفظ التوازن بينها جميعاً.

النسور جارحة ضارية وعمرها مديد، ولكنها فى مقابل هذه نزرة قليلة البيض والفراخ بالقياس إلى العصافير والزرازير ولنا أن نتصور كيف كان الأمريكيون لو كان للنسور نسل عصافير؟ وكيف كانت تقضى على جميع الطيور.

والأسود كذلك فى عالم الحيوان كاسرة ضارية، فكيف لو كانت تنسل كالظباء والشاء؟ إنها ما كانت تبقى على لحم فى الغابة ولا غذاء ولكن اليد التى تمسك بالزمام تجعل نسلها محدوداً بالقدر المطلوب، وتكثر من ذوات اللحوم من الظباء والشاء، وما إليها لسبب معلوم.

وهكذا وهكذا فى الخلق ذاته، وفى خصائصه، وفى تدبيره وتقديره فى عالم الناس، وعالم الدواب، فى هذا كله آيات، آيات ناطقة ولكن لمن؟ من الذى يراها ويتدبرها ويدركها ؟ ﴿لقوم يوقنون﴾.

واليقين هو الحالة المهيئة للقلوب كى تحس، وكى تتأثر، وكى تنيب، اليقين الذى يدع القلوب تقر، وتثْبُتُ، وتطمئن، وتتلقى حقائق الكون فى هدوء، ويسر، وثقة، وفى راحة من القلق، والحيرة، والزعزعة فتصوغ من أقل ما تحصل أكبر النتائج وأعظم الآثار فى هذا الوجود.

وقد أشارت الآيتان إلى معان من الحكمة يستدل بها ذو العقل على الله وأسمائه وصفاته ووجوده، والآية الأولى ذكرت أن الإيمان للمؤمنين والآية الثانية ذكرت أن الآيات للموقنين. ونأخذ من ذلك أن هناك آيات فى الكون لابد لإحساس القلب فيها من إيمان، وآيات لابد لإحساس القلب فيها من يقين.

وفى هذه النظرة القائمة على حدود الإنسان وما يحيط به من كائنات حية يرى المؤمن ما يملأ قلبه بما لله سبحانه وتعالى من حكمة، وعلم، وقدرة. حيث تصنع القدرة الإلهية من تراب هذه الأرض تلك الكائنات المنتشرة فى كل أفق من آفاقها، والتى تملأ وجه الأرض حياة، وحركة، وجمالاً.

* * *

obeikandl.com